(آثرت الحرية) أمام القضاء الفرنسي

كتاب ترجم إلى كثير من اللغات الحية، ولقي اهتمامًا كبيرًا في كل بلد حلَّ ضيفًا على لغته وقرائه، ذلك هو كتاب (آثرت الحرية) للكاتب الروسي فكتور كرافتشنكو... واليوم يثير هذا الكتاب أعظم ضجة عرفها محيط الرأي العام الفرنسي، وردد صداها البرق إلى كل بقعة من بقاع العالم!

أما كرافتشنكو فكان موظفًا بالسفارة الروسية في أمريكا ثم ترك منصبه وتخلى عن حاشيته، ولجأ إلى حكومة البلد الذي يقيم فيه طالبًا حمايته... ثم ما لبث أن أخرج كتابه ليهاجم فيه نظام الحكم في بلاده، وليتحدث عن الجو القاتم الذي يكتم الأنفاس ويقبض الصدور؛ ذلك الجو الذي قدر له يومًا أن يعيش في رحابه، وأن يطلع على كثير من قيوده التي تحد من حرية الرأي والفكر، وتلغي كثيرًا من القيم التي ينشدها الأحرار في المجتمع الكريم!

لهذا كله أثار الكتاب اهتمام قرائه... ولكنه عاد اليوم فرابهم بقدر ما راعهم، حتى لقد أصبحوا يترقبون باهتمام بالغ نتيجة هذه الضجة التي أثارها حوله مجلة (ليتر) الفرنسية، وهي الضجة التي اتخذت طريقها إلى القضاء منذ أيام!

ولقد ذهبت المجلة في تخريجها للكاتب الروسي إلى أنه كذاب مخادع لا يمت إليه كتابه بصلة من الصلات، وإنما هو من صنع قلم المخابرات السرية في الولايات المتحدة... وأمام هذا التجريح السافر لم يجد كرافتشنكو بدًا من رفع الأمر إلى القضاء، مطالبًا بمعاقبة القائمين على أمر المجلة الفرنسية طبقًا لنصوص القذف في القانون الفرنسي!

وفي سراي العدل في باريس حيث عرضت هذه القضية المثيرة، ضاقت القائمة على سعتها بجمهور يتلهف شوقًا إلى سماع كلمة القضاء في حقيقة

هذا الكتاب... أهو حقًا من وضع مؤلفه أم هو من وضع غيره ثم رؤي أن ينسب إليه؟! أما أنا فقد تتبعت أدوار القضية مما وافتنا به شركات الأنباء في الأيام الأخيرة، وأستطيع أن أقول إن موقف المؤلف الروسي قد بلغ غاية الحرج في أول جلسة من جلسات المحاكمة، حتى لقد سرى الهمس بين الحضور حول حقيقة نسبة الكتاب إلى مؤلفه... كان ذلك حين وجه محرر (لي ليتر فرانسيز) سؤالين إلى كرافتشنكو أوقعاه في حيرة بالغة، وكان السؤال الأول: هل يستطيع كرافتشنكو أن يذكر لنا شيئًا عن نهاية (منزل العروس)؟ وأرتج على المؤلف الروسي وعجز عن الجواب ولم يدرك ما وراء السؤال... عندئذ تهيأت الفرصة لخصومه فانبثوا ينعتونه بالكذب والخداع؛ كيف يعجز عن تذكر مسألة أفرد لها بعض الصفحات في كتابه وهو يتحدث عن مسرحية (منزل العروس) للكاتب النرويجي هنريك إيسن؟! وكيف يعجز عن تذكر مسألة أخرى دار حولها السؤال الثاني حين طلب إليه المحرر أن يدلي بما رسب في ذهنه عن مسرحيات دستويفسكي الثورية، وهي مسألة تناولها المؤلف من زاوية خاصة في بعض صفحات (آثرت الحرية) ؟!

وهل من المعقول أن يخرج كرافتشنكو كتابًا يقع في ستمائة صفحة من القطع الكبير بهذا الأسلوب المشرق كما يقول خصومه وهذه مقالاته في الصحف الروسية تحفل بين أيديهم بهلهلة الأداء وانحطاط العبارة؟!

هذه هي القضية التي تعرض اليوم أمام القضاء الفرنسي... وليس من شك في أن الذين قاموا بترجمة هذا الكتاب من مختلف الشعوب إلى شتى اللغات، سيلقون بعض الحرج إذا وقف القضاء إلى جانب المجلة الفرنسية، ومما يذكر في هذا المجال أن الأستاذين محمد بدران وزكي نجيب محمود قد قاما بنقل الكتاب إلى العربية بتكليف من وزارة المعارف!

لحظات مع أمير الشعراء:

هي تلك التي نعمت فيها منذ أيام بالاستماع إلى قصيدة (النيل)، تنطلق أبياتها في أنغام ساحرة من حنجرة أم كلثوم. الشعر الممتاز يتناوله الصوت الممتاز فيحيله لحنًا فريدًا يمتع السمع والفكر والخيال.

أما السمع فكان مع الصوت الجميل النادر، وأما الفكر فكان مع الشعر الذي هز مكامن الشعور، وأما الخيال فكان مع الشاعر العظيم يسبح في دنياه!

نعم، كان الخيال مع الشاعر الذي أنكرته يومًا مع المنكرين ثم عدت فأنكرت ما كان من أمر نفسي... إن ضجيج المعاول التي كانت تحاول هدم البناء الذي أقامه الرجل في دنيا الشعر، هو الذي حال بين سمعي وبين الإنصات لتلك القيثارة الفذة! لقد كنت أصبح على أصوات المعاول وأمسى على أصوات المعاول وفي غمرة هذا الضجيج طغت الصيحات الجائرة على الألحان الساحرة فضلت طريقها إلى قلبي... ولم تكن الملكة الناقدة في السن المبكرة قد بلغت من النضج ما يمكنها من إقامة الميزان لملكات الموهوبين وحملات المغرضين! وحين أقبل اليوم الذي خفتت فيه أصوات المعاول خجلا من صمود البناء، أرهفت سمعي لألحان الشاعر المفترى عليه، وأرسلت فكري يقف عند كل بيت من أبياته ويطيل الوقوف، ورحت أزن الرجل وشعره بميزان الذوق الذي يحتكم إلى العقل والقلب والشعور... وخرجت من هذا كله بشيء واحد: هو أنني آمنت بشوقي وكفرت خصومه!

كان السمع إذن مع أم كلثوم، وكان الفكر مع الشعر، وكان الخيال مع الشعر... أما الشعر فقد عرفت رأي فيه وفي صاحبه، وأما الغناء فلا بد فيه من كلمة! إن أم كلثوم في رأى الفن لا تمتاز بموهبة الصوت وحدها كما ينادي بذلك بعض الغلاة ولكنها تمتاز بموهبتين أخريين هما براءة الإلقاء ودقة الأداء... إنها تكاد تنفرد بتلك الموهبة التي تتمثل في سلامة النطق

لمخارج الحروف في المقطوعات الشعرية، أما موهبة الأداء فتتمثل في أنها تنقل اللحن كما يلقى إليها في دقة عجيبة، يعينها عليها ذوق صقله المران وأذن بلغت الغاية في رهافة الحس الموسيقى. كل ما ينقص هذه الفنانة هو أن صوتها النادر ينطلق من أوتار الحنجرة دون أن يمر على أوتار القلب وهنا مفرق الطريق بينها وبين فنانة كأسمهان!

كلمات من (قطرات ندي):

حدثتك في العدد الماضي عن كتاب الأديب اللبناني راجي الراعي... ولن أنعت هذا الرجل إلا بكلمة (أديب) ولو ترك الأدب إلى المحاماة، وترك المحاماة إلى القضاء، وترك القضاء إلى حيث لا أدري ولا يدري!

ولعل هذه الكلمات التي أنقلها هنا عن كتابه تهز قلبه وتحرك قلمه وتعود به إلى ماضيه... وإنها لكلمات تعلو في رأي فوق مستوى نظائرها في (كرم على درب) لميخائيل نعيمه. وإذا كنت قد استمعت لنعيمه في كرمه ودربه فما أحراك أن تستمع لراجي الراعي في قطرات نداه:

يقولون أبطلوا الثورات، ولكنهم ينسون أن الألوهية نفسها قد ثارت يا لخليقة على العدم!

إذا شئت أن تبكي فاذرف الدمع أينما كنت، فلست في حاجة إلى زاوية تختارها فيها فالجميع يبكون!

الرجل الذي لا يستحق أن يحيا لا يستحق أن يموت أيضًا، فقد يجاور جثمان رجل عظيم!

إذا صفعتك الحياة بارزها بسيف الإرادة وأرسل إليها شاهديك: العمل والأمل!

الفشل دمعة وقهقهة، فإذا فشلت بكى الوهم فيك وقهقهت الحقيقة!

الزنا في رأي لا يعني فقط تحول المرأة عن زوجها الشرعي، ولكنه يعنى أيضًا التحول بصورة عامة عن طريق الواجب، فأي منا لا يتحول عن

هذا الطريق! أي منا لا يعد مع هذا التعريف زانيًا!

لا تقل لي كم عشت من السنوات ولكن قل لي كيف عشتها!

من أنت وما هذا التبجح فيك، ما دامت ثلاث كؤوس من الخمرة الطيبة تستطيع أن تتصرف بك على هواها؟!.

إذا وقعت الحياة على أوتارها جاءتك بنغمة واحدة هي الأنين!

الحياة تسقيني خمورها ولكن الموت هو الداعي إلى الوليمة، فكأن الحياة تقدم لي كأسها لأشرب نخب القبر الذي أنا صائر إليه!

كيف اجتمعت عظمة الفن في بناء الأهرام مع عبودية بنائها؟!.

الفترة بين ضلال وضلال هي التي تحبسها هدى وما هي إلا صلة بينهما!

ليتني أظل حيًا في الموت لأدرك أسراره!

الذكرى جرس يدق في عالم النسيان!

الأبطال يشيدون بحبال مشانقهم أوتاد خيامهم في بطاح المجد!

ثلاثة قهروا الموت: الخالد، والمنتحر، والذي لم يولد بعد!

عجبت للموت كيف يدعى أنه يغمض الجفون، ألم تغمضها الحياة من قبله؟ أي لحظة تمر بنا والجفن فيها قرير؟!.

مهما قيدوا حرية الكلام فإن الخطيب الحق هو من إذا جاشت في صدره الشجون لا يلتفت يمنه ولا يسرة، بل يصعد إلى المنابر عنوة وقسرا!

سوفوكليس والأستاذ الصعيدي:

الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي عالم من العلماء الأزهر؛ ومعنى هذا أن ثقافته لا تعينه في البحث والدراسة إلا في حدود المجال الذي يخصص فيه وتفرغ له. وكم أود أن يقصر بعض الباحثين جهودهم على الميدان الذي أعدوا له أذواقهم وملكاتهم، وأنفقوا فيه كل ما تهيأ لهم من وقت ومثابرة!

أقول هذا بمناسبة الكلمة التي كتبها الأستاذ الصعيدي في العدد الماضي من (الرسالة) حول مسرحية (الملك أوديب) للأستاذ توفيق الحكيم... ولعله يوافقني على أن مجال الكتابة عن فن المسرحية أمر يبعد عن دائرة اختصاصه، لأنه لا يعرف لغة أجنبية تعنيه على الإلمام بأصول هذا الفن عند سوفوكليس وغير سوفوكليس من كتاب المسرحية في الأدب اليوناني. ولو قدر له شيء من هذا لما كتب هذه الكلمة التي تحفل بسذاجة النظرة إلى ذلك العمل الفني الذي نسجت خيوطه من جو الأساطير القديمة! ... إن الأستاذ الصعيدي يضحكني حين يخالف رأي النقاد على مدار القرون، وهو الرأي الذي يقطع بأن هذه المسرحية قد بلغت من الكمال الفني أوجًا يعد مفخرة للذهن البشري. إنها في رأيه أو على الأصح في رأي ثقافته . ألاعيب كهان جهلة، يستغلون جهل الشعوب، ويلعبون كما يشاء لهم جهلهم بمصيرهم!

إذا لم تصدق أن الأستاذ الصعيدي قد قطع بهذا الرأي، فارجع إلى عدد (الرسالة) الماضي... وإذا سألتني تعقيبًا، فليس لدي غير تعقيب واحد هذا نصه: أفادكم الله يا أستاذ!